

نقد السنة المحكية بأدوات تشييد السنة

مشروع محمد جواد الإصفهاني، الإطار الأصولي

تختلف آليات النقد ومشاريعه، فقد تنطلق من الأطر المعرفية التي تشترك مع الفكر المستهدف نقداً وإبطالاً، وقد تختلف عنها، أي قد يكون النقد من الداخل، وربما جاء من الخارج، فعلى سبيل المثال، المشروع النقدي لحكمي زاده، والبرقي، وقلمداران وأمثالهم، لا يستخدم طبيعة الأدوات المتعارفة في وسط الفريق الآخر المستهدف بالنقد كما سيأتي، فظاهرة نقد المتن بهذا الشكل غير مألوفة، ومفردات النقد هذه غير متداولة، لهذا يمكن اعتبار مثل هذه المحاولات - إلى حد ما - محاولات نقدية مخارجة للموروث السائد، ولهذا لم نجد كثيراً من الاهتمام عند هذا الفريق باستحضار عينات من التراث تساند موقفه، لأنه خصيم لما أتانا به التراث في منهجيته وأنماط تفكيره.

أما مثل مشروع محمد آصف محسني، فهو ينطلق - كما أشرنا من قبل - من خلفيات علم الرجال والدراية والجرح والتعديل، فلم يخرج عن الإطار النظري المرسوم هناك، ولا عن الأدوات المعرفية المستخدمة، غاية ما في الأمر أن إصلاحاً داخلياً جرى معه من وجهة نظره ترك آثاراً في نقاط أخرى من داخل الموروث نفسه، فعندما يستخدم آصف محسني أدوات علم الرجال ليثبت ضعف محمد بن سنان أو الطريق إلى كتاب قرب الإسناد فمن الطبيعي أن تترك نتائجه هذه أثراً في مناطق أخرى من الموروث، أي في الفقه

و..

في هذا السياق، يقع مشروع آية الله السيد محمد جواد الموسوي الغروي الإصفهاني المعاصر، حيث رفض السنة المحكية الظنية، بل رفض كل دليل ظني في الدين، بيد أنه استخدم في رفضه هذا المناهج المتبعة عينها في أصول الفقه الشعبي، فقد تناول هذا الموضوع كما يتناوله الأصوليون تقريباً، فسرده أدلتهم دليلاً دليلاً، ثم ناقشها بمناقشات عديدة، ورغم خروجه عن هذا السياق أحياناً بيد أن الصبغة العامة التي حكمت مشروعه كانت كذلك بالتأكيد، ومن ثم فالفارق بينه وبين آصف محسني أن الأخير نقد السنة من

منطلقات رجالية، أما الإصفهاني فتقدمها من منطلقات أصول الفقه، إضافة إلى أن الإصفهاني وإن دعا لتطهير كتب الحديث لكن جهده لم يتركز ميدانياً على ذلك، بقدر تركّزه على إبطال المصادر المعرفية الموجبة للاعتماد على كتب الحديث، وهي المستكثة في مباحث الحجج والظنون من علم الأصول.

ولد الموسوي الإصفهاني عام ١٩٠٦م، وحصل علومه الحوزوية على يد أساتذة معروفين، حتى حاز درجة الاجتهاد من أستاذه محمد رضا النجفي صاحب كتاب «وقاية الأذهان»^(١)، وقد حفظ في شبابه عشرات آلاف الروايات كما يقول^(٢)، إلا أن منهجه الدعوي كان يقوم على الاستدلال بالكتاب والسنة والأدلة العقلية، محارباً للإسرائيليات والبدع وأخبار الغلاة والمبدعين والمنحرفين عند المذهب الإمامي، ولهذا ركّز جهوده على مواجهة الأخبار المنحولة والمزيفة من وجهة نظره^(٣).

دوافع نقد السنة الظنية عند الموسوي الإصفهاني

وثمة دوافع تبدو لنا أنّها ساهمت في حثّ الإصفهاني على فعله هذا أبرزها:
الدافع الأول: اعتقد الموسوي الإصفهاني - جازماً - برسالة ضرورية يُطالب بها عالم الدين اليوم، قال: إنه - أي الإصفهاني - عمل على تحقيقها على الدوام، ومضمون هذه الرسالة يتلخّص في تصفية الدين مما علّق به عبر الزمن من البدع والخرافات، وتشبيد المذهب الإمامي على العقل، والقرآن، والسنة المتواترة أو المحفوظة بالقرائن المفيدة لليقين بالصدور، وعبر ذلك تمييز النصوص الحديثية غنّها عن سمينها، بحيث ترتفع بذلك الملاحظات والإشكالات والمؤاخذات المسجّلة على هذا المذهب^(٤).

ويتحدّث الإصفهاني عن حملات التشويه والمضايقة التي تعرّض لها على الدوام، نظراً لمشروعه هذا من جهة، ولدعوته لإقامة صلاة الجمعة أيام الشاه قبل حوالي السبعين عاماً تقريباً، من جهة أخرى، حيث تعرّض لغضب محرّمي هذه الصلاة آنذاك، كونها خاصّة بالإمام المعصوم عليه السلام وفق رأيهم^(٥).

- ١- انظر الإجازة التي نالها في الاجتهاد في كتاب پيرامون ظن فقه للموسوي الإصفهاني، الصفحة الأولى والثانية والثالثة (غير مرقّمة).
- ٢- المصدر نفسه: يب.
- ٣- المصدر نفسه: يد - به.
- ٤- المصدر نفسه: به، كو، ٥٥٣، ٥٩٢ - ٥٩٣.
- ٥- المصدر نفسه: به، يو - يط، ٥٥٣؛ وراجع حول الخلافات بين أنصاره وخصومه في مدينة إصفهان، رسول جمفریان، جریان ها وسازمان ها: ٣٦٤ - ٣٦٦، ويرى جمفریان أن أنصاره كان لهم - بقيادة مهدي الهاشمي الذي أعدم قبل وفاة الإمام الخميني، وكان الحكم عليه سبباً في عزل آية الله منتظري - دور في اغتيال آية الله شمس آبادي.

إن الموسوي الإصفهاني في موقفه هذا ينطلق - وفق رأيه - من أن الروايات الموضوعية والضعيفة هي التي كوَّنت ثقافةً في المجتمع الإسلامي كانت مسؤولةً عن انهيار حال المسلمين^(١)، من هنا، فهو يرفض بشدّة ترويج هذه الأحاديث عبر وسائل الاتصال الديني الجماهيري كالمنبر و..^(٢)، فإذا لم يتمكّن العلماء - وهي وظيفتهم - من تقويم الأحاديث وفق العقل، والكتاب، والسنة المؤكّدة، ثم حذف الموضوع والمدسوس، فلا أقلّ من أن واجبهم عدم ترويج تلك النصوص الحديثية ومصادرها، ولا تحقيقها وتصحيحها وإحيائها و..^(٣)، إن المطلوب من الفقهاء - عنده - أن لا يولوا المديح والثناء لهم أهميةً وقيمة، بل يهتموا بكشف الحقيقة وإجلالها للناس والجميع^(٤)، ولذلك يحمل الإصفهاني علماء الدين - الشيعة والسنة - مسؤولية البدع والخرافات السائدة في المجتمع الإسلامي، ذلك أنّهم إما روجوها وإما سكتوا عنها، دون أن يتصدّى أحدٌ منهم لمحاربتها^(٥).

الدافع الثاني: الذي حثّ الإصفهاني على طرح رؤاه في هذا المجال، كان الوحدة الإسلامية، فقد ألمه كثيراً - كما يقول - تجاهل المسلمين آيات الوحدة والائتلاف^(٦)، معتبراً أنّ الوحدة الإسلامية كانت أهم هدف له، بحيث من شدّة أهميتها كان يبطل أيّ مقولةٍ تخالفها أو على الأقل يخضعها للفحص والتمحيص^(٧)، ولعلّه من هذا المنطلق رفض الإصفهاني بشدّة ما جاء في بعض الروايات الشيعية من الأخذ عند تعارض الأحاديث بما خالف أهل السنة، وقد جاء أيضاً أنّ الرشد في خلافهم، إذ اعتبر أنّ معيار أخذ الحديث ورفضه مطابقته للواقع وعدمها لا غير، فهذا المبدأ مرفوض إطلاقاً، إذ في روايات السنة ما هو مطابقٌ للحقيقة، وعلى أبعد تقدير يُقصد بهذه الروايات - عنده - طرح آرائهم المخالفة للحق، كتلك الآتية من القياس والاستحسان وأمثالهما^(٨)، إن قاعدة «خذ ما خالف العامّة» من أكبر اشتباهاات الفقهاء عنده للسبب نفسه، لذا لا يجدر التعويل عليها^(٩).

١- محمد جواد الموسوي الإصفهاني، فقه استدلالی در مسائل خلافي: ٥٨٨.

٢- المصدر نفسه: ٥٨٣.

٣- المصدر نفسه: ٥٠٦ - ٥٠٧.

٤- المصدر نفسه: ٥٠٨ - ٥٠٩.

٥- الموسوي الإصفهاني، پيرامون ظن فقيه: ١٠٩.

٦- المصدر نفسه: كج.

٧- المصدر نفسه: يط، كه، وراجع مقدّمة: فقه استدلالی.

٨- پيرامون ظن فقيه: ٩٢ - ٩٣؛ و فقه استدلالی: ٥٣٠.

٩- فقه استدلالی: ١٢٠.

٦٠٠ نظرية السنة في الفكر الإمامي الشيعي

إن معاوية بن أبي سفيان هو مفرق الأمة عند الإصفهاني^(١)، ومع الأسف فقد تبعه

أكثر المسلمين في ذلك.

وفي سياق دفاعه عن مبدأ الوحدة الإسلامية، الذي يفرد له بحثاً خاصاً، يجعله فيه من القواعد الفقهية الكلية، شبه قاعدة لاضرر، مستنداً على ذلك بجملة أدلة^(٢)، ينتقد الإصفهاني مقبولة عمر بن حنظلة الشهيرة^(٣)، التي عدت من أبرز أدلة بحوث القضاء، وولاية الفقيه، وتعارض الأحاديث في الفقه وأصوله، ويسجل عليها سلسلة طويلة من الملاحظات السندية بل والمنتية، مستتجاً لا ضعف سندها فحسب، كما قال به أمثال السيد الخوئي^(٤)، بل كونها في غاية الضعف، وأن السبب في شيوعها بين المتأخرين من العلماء والخطباء هو اشتغالها على إخراج أهل السنة عن دائرة الإسلام، والأخذ بما خالفهم^(٥).

الدافع الثالث: هجران النص القرآني بين المسلمين^(٦)، ذلك النص الذي يراه

الإصفهاني معيار المفاهيم الدينية^(٧)، وتجده حاضراً بقوة في مختلف مؤلفاته ومصنفاته، إن هذا النص قد جمّد - مع الأسف - لصالح أقوال الفقهاء والأخبار الضعيفة^(٨).

والمحتمل قوياً أن الإصفهاني كان متأثر في مشروعه هذا بأستاذه الذي قال إنّه لازمه أربعين سنة، وهو آية الله آغا رحيم أرباب^(٩)، حيث كانت للأخير آراء فقهية عديدة مخالفة لمشهور العلماء، مثل رفض الرجم للزاني مطلقاً حتى المحصن، ورفض حكم قتل المرتد^(١٠)، والقول بأنّ الخمس كلّ للسادة، ولا يؤخذ إلا الفاضل عنهم^(١١) .. وقد رفض

١- المصدر نفسه: ٤٨٠ - ٤٨٢.

٢- الإصفهاني، فقه استدلالی: ٢٥ - ٢٧.

٣- الحر العاملي، وسائل الشيعة ٢٧ : ١٠٦ - ١٠٧، كتاب القضاء، باب وجوه الجمع بين الأحاديث المختلفة، ح ١.

٤- الخوئي، التتقيح، مباحث الاجتهاد والتقليد: ١٤٣ - ١٤٤، ولا يؤمن بأنّ الأصحاب تلقوا هذه الرواية بالقبول، وإن قال بذلك في مصباح الأصول ٣: ٤٠٩ - ٤١٠، رغم إقراره هناك أيضاً بالضعف السندي.

٥- الإصفهاني، فقه استدلالی: ٥١٦ - ٥٥٨.

٦- الإصفهاني، پیرامون ظن فقیه: كج.

٧- المصدر نفسه: كه.

٨- الإصفهاني، پیرامون ظن فقیه: ١١٨.

٩- الإصفهاني، آية الله حاج آغا رحيم أرباب، مجلة مسجد، العدد ٢٥، ١٩٩٦م : ٩١، والمقال دراسة عن حياة رحيم أرباب من صفحة ٩٠ إلى ٩٧.

١٠- المصدر نفسه: ٩١.

١١- المصدر نفسه: ٩٢.

الفصل السادس: مشروع نقد السنة في الوسط الشيعي الحديث ٦٠١
رحيم أرباب، فيما يخبرنا به الإصفهاني نفسه، أخبار الآحاد مطلقاً علماً وعملاً^(١)، كما
اعتبر أكثر مباحث علم أصول الفقه فضولية^(٢)، رافضاً انسداد باب العلم بالشرعية في
عصرنا حتى نلجأ إلى الظنون^(٣).

نقد نظرية الظن وأخبار الآحاد في الاجتهاد الديني

يركّز الموسوي الإصفهاني جهوده العلمية التي تتناول موضوع السنّة عبر المدخل
الأصولي: الظنّ، فقد حاز موضوع الظنّ في أصول الفقه الإسلامي الشيعي والسنيّ على
أهمية كبيرة، وكتبت فيه دراسات طويلة وضخمة، ومن هذه النقطة بالذات ينطلق
الإصفهاني لإعادة تكوين مفهوم الاجتهاد ومصادره، وعبر ذلك إعادة قراءة السنّة
المحكية.

يعتقد الإصفهاني أنّ الظنّ والشكّ والوهم مقولات خارجة عن دائرة الدين،
والداخل فيه العلم واليقين فقط^(٤)، والأحكام - معرفةً وعملاً - لا تقوم عنده سوى على
العلم^(٥)، وأهمّ ما فرقّ المسلمين تعدّد الفتاوى الذي انبثق من إعطاء الحجية لظنون
الفقهاء، إن هدف الإصفهاني جعل العلم معياراً فحسب^(٦).

وفي تحليله للتطوّر التاريخي لمقولة الظنّ في الفكر الإسلامي، يذهب الإصفهاني إلى
أنّها عُرِفَت أولاً في الأوساط السنية عصر الصحابة، سيما عهد معاوية بن أبي سفيان،
وكان أوّل من عمل بأخبار الآحاد أبي بكر في قصة فدك وارث النبي^(٧)، وأنّها سرت في
نظرية خبر الواحد إلى الشيعة عصر أبي جعفر الطوسي (٤٦٠هـ)، وإن كان لها وجود
ضعيف وباهت قبله^(٨)، حتى وصل الحال إلى المتأخرين، حيث ذهب أغلبهم إلى انسداد
باب العلم، وهي الخطوة التي جاءت على طريق اختلاف المسلمين، مما ألجأهم نهايةً إلى
اتباع أخبار الآحاد^(٩).

لكن لماذا اتبعت الأمة ظنون الفقهاء! ولماذا لم تواصل مسيرة العلم واليقين!

١- المصدر نفسه: ٩١، ٩٣.

٢- المصدر نفسه: ٩٢.

٣- المصدر نفسه: ٩٣.

٤- الإصفهاني، بيرامون ظن فقيه: ٢.

٥- الإصفهاني، فقه استدلال: ١٩٢.

٦- الإصفهاني، بيرامون ظن فقيه: كو.

٧- المصدر نفسه: ٤٠٧.

٨- المصدر نفسه: ٣، ٥، ٦.

٩- المصدر نفسه: ٤ - ٥.

سؤال جاد وأساسي يطرحه الإصفهاني، ويجب عنه من وجه نظره أيضاً، مخصصاً له الفصل الخامس من كتابه: حول ظن الفقيه^(١).

والجواب عنده يتمثل في أمرين اثنين هما:

أولاً: عمل الصحابة وخلفاء المسلمين بالظن، كما ألمح آنفاً، وقد سار على نهجهم أهل السنة، ثم لما رأى الشيعة كثرة الفروع والتفاصيل التي احتواها الفكر السنّي، سيما على صعيد الفقه الإسلامي، شعروا بشيء من الإحباط، فسعوا لمواكبة تطوّر البحث الفقهي عند أهل السنة، مما ساقهم إلى اعتماد أخبار الآحاد، وكان أول من فعل ذلك الشيخ الطوسي (٤٦٠هـ)، ثم تبعه من جاء بعده^(٢).

ثانياً: غفلة الفقهاء عن تمامية الكتاب الكريم والسنة القطعية، ذلك أنّهم ظنوا أن الموضوعات التي تعني الشارع سبحانه وتعالى هي تلك التفريمات التي ابتدعوها، والحال أنّ الكثير من مسائل الفقه السنّي والشيوعي اليوم لا فائدة منه لا مادياً ولا معنوياً، ولذلك لم يمتروا على مستند له في الكتاب العزيز^(٣)، من هنا كانت مئات الكتب الأصولية بلا نفع، بل مضيعة للوقت^(٤)، إنّ اهتمام الفقهاء المسلمين بموضوعات بالغة الكثرة في الفقه هو الذي أدّى بهم إلى ما وصلوا إليه اليوم، ذلك أنّهم لم يجدوا لهذه الفروع الجزئية التي كانوا يبحثون عن جواب لها في مصادر التشريع، لم يجدوا لها جواباً، مما ألجأهم إلى مثل الإجماع، والقياس، والشهرة، والمصالح المرسلة، وأخبار الآحاد .. مما يوجب الاختلاف، ولا يحتوي سوى الباطل والانحراف^(٥).

أدلة مرجعية العلم ورفض الظن

القرآن مشحون ومليء بالنصوص الدالة على مرجعية العلم ورفض اتباع الظنون مطلقاً، هذه هي الخلاصة التي يريد أن يوصلها الموسوي الإصفهاني إلى قرّائه، ولسوف تنفعه جيداً في مواجهة أدلة مثبتة حجية خبر الواحد.

أما كيف كان القرآن صارخاً برفض الظن واتباع العلم؟ فجواب الإصفهاني كما

يلي:

١ - القرآن منع عن الظن وأمر باتباع العلم ونهى عن قول غير العلم في مواضع

١- المصدر نفسه: ١٠٨ - ١٢٢.

٢- المصدر نفسه: ١٠٩ - ١١٢.

٣- المصدر نفسه: ١١٥ - ١١٨.

٤- المصدر نفسه: ٤٢٠.

٥- الإصفهاني، فقه استدلالی: ١٩٥ - ١٩٦.

الفصل السادس: مشروع نقد السنة في الوسط الشيعي الحديث ٦٠٣

عديدة، كالأنعام: ١١٦، ١٤٨، ويونس: ٣٦، وص: ٢٧، والذاريات: ١٠، والنساء: ١٥٧، والنجم: ٢٣، ٢٨، والجن: ٢٤، والبقرة: ٧٨، والزخرف: ٢٣، إلى جانب بعض الروايات أيضاً^(١).

٢ - القرآن ينصّ في خمسة وأربعين موضعاً على أنّ أحكام الدين مبنية على العلم والدليل مثل: النساء: ١١٣، والأنعام: ٩١، والبقرة: ٨٠، ١٥١، ١٦٩، والأعراف: ٢٨، ٣٣، ويونس: ٦٨، ٨٩، والنحل: ٤٣، والأنبياء: ٧، وآل عمران: ٦٦، والحج: ٥٤، والعلق: ٥، وإبراهيم: ٥٢، والزمر: ٩، والجن: ١٨ و..^(٢).

٣ - القرآن يطالب بالبرهان لأيّ ادعاء في خمسة مواضع منها: البقرة: ١١١، والقصاص: ٧٥ و..^(٣).

٤ - السلطان في القرآن الكريم يعني البرهان، وقد جاء في خمسة مواضع منها: الكهف: ١٥ و..^(٤).

٥ - القرآن يطالب بالحجة، وتعني البرهان، في موضعين هما: الأنعام: ١٤٩، والنساء: ١٦٥^(٥).

٦ - القرآن يطرح البيان، ويعني العلم المساوق لليقين، والظن على خلافه، وذلك في ٢١ موضعاً منها: الحديد: ١٧، والمائدة: ١٩ و..^(٦).

٧ - آيات الفصل والتفصيل تعني العلم وتخالف الظن، جاء ذلك في ١٣ موضعاً، منها: يوسف: ١١١، والطارق: ١٣ و..^(٧).

٨ - كلّ آيات البينة والبيان تخالف الظن، وقد جاءت في ١١ موضعاً منها: النور: ٣٤، والأنفال: ١٢ و..^(٨).

٩ - الظن يخالف كون القرآن مبيّناً، وقد جاء هذا الوصف للقرآن في سبعة مواضع، منها: يس: ٦٩، والأحقاف: ٩ و..^(٩).

١٠ - القرآن ينصّ على أنّ الدين هو الحق، والحقّ لغةً يعني الموجود الثابت، واليقين

١- الإصفهاني، پيرامون ظن فقيه: ٧ - ١٠، ٨٢ - ٨٨.

٢- المصدر نفسه: ١٢، ١٧.

٣- المصدر نفسه: ١٧ - ١٨.

٤- المصدر نفسه: ١٨ - ١٩.

٥- المصدر نفسه: ١٩ - ٢٠.

٦- المصدر نفسه: ٢٠ - ٢٢.

٧- المصدر نفسه: ٢٢ - ٢٤.

٨- المصدر نفسه: ٢٤ - ٢٥.

٩- المصدر نفسه: ٢٥ - ٢٦.

- ٦٠٤ نظرية السنة في الفكر الإمامي الشيعي
- ...، وقد جاء وصف القرآن نفسه بذلك في خمسين موضعاً منه، منها: الرعد: ١، وهود: ١٧ و... (١).
- ١١ - النبي ﷺ - بنص القرآن - مبلغ في ١٣ آية، والتبليغ يساوق اليقين، والآ لم يعمل بدوره (٢).
- ١٢ - القرآن يشهد على بقاء الإسلام في موضعين منه، وحجية الظن تعني استبدال الإسلام بظنون الفقهاء (٣).
- ١٣ - القرآن ينصّ على كمال الدين وتمامه، والظن يفاير ذلك (٤).
- ١٤ - الظنّ يضادّ الهداية، التي تعني إراءة الطريق، والقرآن ينصّ عليها في ٢٠ موضعاً، منها: الليل: ١٢، والإنسان: ٣، و... (٥).
- ١٥ - القرآن نصّ على الحكمة التي تعني الصواب والعلم دون الظن في ١٢ موضعاً، منها: آل عمران: ١٦٤، والجمعة: ٢ و... (٦).
- ١٦ - القرآن ينصّ على انحصار الحكم بالله سبحانه في ثلاثة مواضع، منها: الشورى: ١٠، والأنعام: ٥٧ و... والظن يخالف هذا الانحصار (٧)، بل القول بحجية الظن توجب جعل الشريك لله سبحانه في الحكم والتشريع (٨).
- ١٧ - القرآن يتحدّث عن النور في ثمانية مواضع، منها: إبراهيم: ١، وفاطر: ٢٠ و... والنور يعني العلم، لا الظنّ ولا الوهم، إذ النور هو الظاهر في نفسه المظهر لغيره (٩).
- ١٨ - القرآن ينصّ على النهي عن تحريم الحلال وتحليل الحرام، والعمل بالظن يفضي إلى ذلك (١٠). وهذه الفكرة هي الشبهة المعروفة في أصول الفقه بشبهة ابن قبة الرازي، التي أشرنا إليها سابقاً، ولعلّه لأجلها حكم الإصفهاني بأنّ العقل لا يجيز اتّباع غير العلم (١١).

١- المصدر نفسه: ٢٦ - ٣٠.

٢- المصدر نفسه: ٣٠ - ٣٢.

٣- المصدر نفسه: ٣٢ - ٣٥.

٤- المصدر نفسه: ٣٥.

٥- المصدر نفسه: ٣٦ - ٣٨.

٦- المصدر نفسه: ٣٩ - ٤١.

٧- المصدر نفسه: ٤٦ - ٤٧.

٨- المصدر نفسه: ٢٦.

٩- المصدر نفسه: ٤٧ - ٤٨.

١٠- المصدر نفسه: ٤٨ - ٥٠.

١١- المصدر نفسه: ١٣٧.

الفصل السادس: مشروع نقد السنة في الوسط الشيعي الحديث ٦٠٥

١٩ - الآيات المتحدّثة عن الفقه في القرآن كلّها تعني العلم وتنافي الظن، وهي ثمانية آيات، منها: الحشر: ١٣، والمنافقون: ٣ و.. (١).

٢٠ - الظن مضادّ للبصيرة الواردة في القرآن في سبعة مواضع، منها: القصص: ٤٢، والجاثية: ٢٠ و.. (٢).

٢١ - النصّ القرآني ينصّ على أنّه صدق، والظن يخالف الصدق (٣).

٢٢ - القرآن ينهى عن الافتراء على الله سبحانه، والعمل بالظن افتراء عليه (٤).

وإذا كانت الكثير من الأدلّة التي يسوقها الإصفهاني قابلة للمناقشة، فإنّ ما يريد هو تأكيد أنّ القرآن الكريم لم يتحدّث سوى عن مرجعية واحدة هي اليقين، ولو كان الظن حجة - كما هو الحال اليوم حيث أغلب الفقه ظنون كما يصرّحون - لكان يجدر الإتيان على ذكره في القرآن الكريم.

الإصفهاني ونقد نظرية خبر الواحد

لا يقتصر الموسوي الإصفهاني على نقد نظرية الظن من حيث المبدأ والقاعدة العامة، بل يتناول أبرز مفرداتها الموجودة في الفكر الإسلامي، فيخصّص الفصل التاسع من كتاب: حول ظن الفقيه، لردّ نظرية القياس (٥)، كما يخصّص بحثاً مفصلاً لردّ نظرية حجية مطلق الظن المبنية على الانسداد وغيره (٦).

إلا أنّ جلّ بحثه مركّز على نظرية حجية خبر الواحد، إذ لا يرى فرقاً بينه وبين القياس، فلماذا حملنا على الثاني فيما أخذنا بالأوّل؟! (٧).

وفي تصوّره التاريخي، يرى الإصفهاني أنّ مشهور الشيعة ما كانوا إلى عهد المرتضى قائلين بخبر الواحد (٨)، بل المحقق الحليّ عنده قائل بنفي الآحاد أيضاً (٩)، والطوسي كلماته متناقضة، من هنا لا يرى إجماعاً على خبر الواحد، بل لو انعقد الإجماع عنده لم

١- المصدر نفسه: ٦٠ - ٦٢.

٢- المصدر نفسه: ٦٣ - ٦٥.

٣- المصدر نفسه: ٦٥ - ٦٦.

٤- المصدر نفسه: ٦٦ - ٦٨.

٥- المصدر نفسه: ٤٤٢ - ٤٦٨.

٦- المصدر نفسه: ٥٢٢ - ٥٤٠، سيما: ٥٣٥ - ٥٤٠.

٧- المصدر نفسه: ١٣٣؛ وراجع موقفه من أخبار الآحاد في مقالته السابقة حول أستاذه رحيم أرباب في مجلّة مسجد: ٩٣.

٨- الإصفهاني، بيرامون ظن فقيه: ١٣٩.

٩- المصدر نفسه: ٣٤٨ - ٣٦٤.

يكن حجة، لأن المسألة عقلية، لا يعول فيها على إجماع^(١).

وقد خصص الإصفهاني بحثاً مطوّلاً لمناقشة كلمات الشيخ البهائي والمحقق الكاظمي في أخبار الآحاد^(٢)، كما كان له وقته طويلة جداً مع الشيخ الأنصاري^(٣)، ناقشه فيها على صعيد الأدلة بتمامها دليلاً^(٤).

ولسنا هنا، بصدد استعراض مناقشاته، وإنما نسلط الضوء فقط على مناقشته لما صار يعدّ اليوم أهمّ دليل على الإطلاق لإثبات حجّة خبر الواحد، حتى لا تكاد تجد - إلا قليلاً كما ذكرنا سابقاً - مناقشاً فيه، أمّا بقية الأدلة، فقد تعرّضت لأخذ وردّ، وهذا الدليل هو السيرة بقسيمها المتشرعي والعقلاني.

أ - أما السيرة المتشرعية، وسيرة المسلمين على العمل بأخبار الآحاد، فيجيب عنها الموسوي الإصفهاني بجوابين:

الأول: إنّها سيرة عوام، فلا يؤخذ بها.

الثاني: إن قيام سيرة المسلمين إنما جاء على حالة حصول العلم من إخبار الثقة، ولسنا نحرز عملهم بخبره حتى مع عدم حصول حالة العلم ونفي الخلاف^(٥).

والذي يبدو أنّ مراد الإصفهاني من العلم اليقين لا الظن القويّ، كما حاول تفسيره الشيخ الأنصاري، ومن هنا يرفض مركّب الظن الاطمئنان، إذ الاطمئنان ليس ظناً^(٦).

ب - وأمّا السيرة العقلانية، وهي الأهم عند الأصوليين، فيناقشها الإصفهاني بمناقشتين:

إحدهما: إن المتيقّن من هذه السيرة عمل العقلاء بأخبار الآحاد، حيث تقوم إلى جانبها قرائن تشهد على صدقها، توجب العلم بمضمونها، بمعنى أنّهم ينفون احتمال الخلاف، وإلاّ لو التفتوا إليه لم يعملوا بخبر الواحد^(٧).

ثانيهما: لو سلّمنا انعقاد السيرة العقلانية على العمل بأخبار الآحاد، لأجبتنا بأن الشارع سبحانه قد ردع عنها، بالآيات والروايات.

وقد حاول بعض الأصوليون رفع هذه المشكلة الثانية عبر القول بضرورة تناسب

١- المصدر نفسه: ١٤٠.

٢- المصدر نفسه: ١٢٥ - ١٦٧.

٣- المصدر نفسه: ٣.

٤- المصدر نفسه: ١٧٢ - ٤٤٠.

٥- المصدر نفسه: ٣٦٦ - ٣٦٨.

٦- المصدر نفسه: ٣٦٨، ٣٧١.

٧- المصدر نفسه: ٣٧٥ - ٣٧٦.

الفصل السادس: مشروع نقد السنة في الوسط الشيعي الحديث ٦٠٧

الردع مع الظاهرة المردوع عنها، كما أشرنا سابقاً عند الحديث عن تطوير الشهيد الصدر لنظرية السيرة واستخداماتها، إلا أن الإصفهاني، مع قبوله بهذا المبدأ، يؤكد أن حجم الردع كان مناسباً، وهنا يستعين الإصفهاني بتلك الطوائف الاثني عشرين من آيات القرآن التي اعتبرها متكاتفاً مع تأسيس مبدأ العلم ورفض الظن، تحوي في طياتها أكثر من مائة آية، وهذا كافٍ في الردع عن العمل بالظنون^(١).

إن حجم الإحضار الذي مارسه الإصفهاني للنص القرآني، كتأكيد لقاعدة اليقين، ورفض لمنطق الظن من جهة، ومناقشته بجرأة مبدأ السيرة بشقيها المتشرع والمقلائي، هما أهم خطوة من داخل علم أصول الفقه الشيعي خطاهما الإصفهاني، مهما كان تقويمنا لصوابية خطوته، إلى جانب خطوته الأخرى في استحضار أدلة أهل السنة على إثبات حجية الخبر الواحد، وكلمات العضدي، والفخر الرازي و.. ثم مناقشتها، لإثبات عدم جدوى أي منها^(٢).

الإصفهاني ومنهج تقويم الأحاديث

لكن محمد جواد الموسوي الإصفهاني رغم إسقاطه حجية كل ظن بما فيه الإجماع وأخبار الآحاد والشهوات، إلا أنه من الناحية الميدانية لم يعتقد بأن تمام الروايات الموجودة في المصادر الحديثية هي أخبار آحاد، بل اعتقد بأن أكثرها مؤيد بالعقل، والقرآن، والسنة القطعية، وبعضها مؤيد بالأصول المسلمة كأصل البراءة و.. وبعضها متواتر معنوياً، وهذا ما لانتقاش - عنده - في الأخذ به والاعتماد عليه^(٣)، إلى جانب الخبر الواحد المحفوف بالقرينة القطعية، وهو ما يجوز العمل به بلا خلاف^(٤)، ويبقى قسم من الأحاديث مما فيه تعارض واختلاف، هو الموجب للنزاع، والعلّة للقول بالانسداد، وقد توهم العلماء - عند الإصفهاني - أن الاستغناء عن هذا القسم يوجب انهدام الدين وتلاشيه، وهم على خطأ في ذلك^(٥).

وإذا كان هذا هو تقسيم الأحاديث عند الإصفهاني، فمن الطبيعي أن يختلف معيار تقويم الحديث عنده، فيتحوّل من نقد السند إلى نقد المتن، ولهذا يري أن تصحيح الحديث على أساس الرواية كان اشتباهاً وقع فيه العلماء، إذ لم ير علماء الرجال الرواة ولم

١- المصدر نفسه: ٣٧٦ - ٣٧٧.

٢- المصدر نفسه: ٤٦٩ - ٤٨٠.

٣- المصدر نفسه: ٧٦، ٧٧، ١٣٤.

٤- المصدر نفسه: ١٢١ - ١٢٢، وراجع له أيضاً: فقه استدلالی: ٥٨٢.

٥- الإصفهاني، بيرامون ظن فقيه: ٧٧ - ٧٨.

يعايشوهم حتى يخبرونا عن وثاقتهم، إنَّما وصلت إليهم أخبارهم عبر تعاقب الأجيال^(١)، وهي الإشكالية التي سبق أن لاحظناها عند المستشرقين وبعض رجال أهل السنة في العالم العربي.

وعليه، لا يصحّ الاعتماد على كتب الرجال، بل ينبغي البحث عن سبيلٍ آخر، وهو - عند الإصفهاني - العرض على الكتاب ثم العقل، الذي هو حجة الله وصاحب الأحكام اليقينية، ثم الأصول المسلَّمة، ثم السنة القطعية^(٢)، وهذا هو الحلّ الوحيد حتّى لمواجهة ظاهرة التمازج في الأحاديث^(٣)، ووفقها يؤخذ بالحديث حتى لو كان راويه ضعيفاً، أو يطرح حتى لو كان الراوي ثقة^(٤).

مصادر الحديث وظاهرة الوضع

لكنّ الموسوي الإصفهاني لا يخفي ملاحظاته على كتب الحديث، إذ يعتقد بأن الدسّ والجعل قد حصلوا أولاً في الأوساط السنية مع اليهود ومعاوية^(٥)، ثم انتقل منه إلى الشيعة، ورغم أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام قد بذلوا جهوداً مضنيةً لمواجهة هذه الظاهرة، إلّا أنّ النصوص المجعولة بقيت قابضة في بطون المصادر الحديثية، مع الاعتقاد أيضاً بأن علماء المسلمين - من الشيعة والسنة - قد قاموا بمحاولات جبّارة لتصفية الحديث، لكن الوضع لم ينته كلياً، بل ظلَّت الكتب المشحونة بالوضع والدس متداولةً حتى بين أوساط عموم الناس^(٦).

والذي يلاحظ عند الإصفهاني أنّ روايات الكرامات والمعجزات ملئت بالخرافة أو الغلوّ في الدين، وقد وضعت بعض الأحاديث المكذوبة من قبل اليهود والمنافقين، والذي حصل أنّ البسطاء تلقّوا هذه الروايات بثقة، وغفلوا عمّا فيها من هدم الدين والطمع فيه، ويرى الإصفهاني - مكملاً وجهة نظره - أنّ أكثر روايات الوضع ترجع للمستحبات كالأدعية والزيارات والعبادات المستحبة وثوابها^(٧).

ولا تقف انتقادات الإصفهاني عند هذا الحدّ، بل يرى أنّ مصنّفي الحديث الكبار،

١- الإصفهاني، فقه استدلالی: ١٦٩ - ١٧٠.

٢- المصدر نفسه: ١٧٠، ٥٨٢، وانظر له: پیرامون ظنّ فقیه: ٥٠ - ٥٣، ٨٨ - ٩٧، ٩٨ - ١٠٠.

٣- الإصفهاني، فقه استدلالی: ١٣٥.

٤- المصدر نفسه: ٥٨٣.

٥- حول معاوية انظر: فقه استدلالی: ٤٧٦ - ٤٨٢، ٥٧٨.

٦- الإصفهاني، پیرامون ظنّ فقیه: كد - كه.

٧- المصدر نفسه: ٧٦ - ٧٧.

الفصل السادس: مشروع نقد السنة في الوسط الشيعي الحديث ٦٠٩
ومع تمهدهم بعدم الرواية عن الكذابين، وما خالف الواقع والدين، سطرخوا في مصنفاتهم روايات كثيرة مليئة بالفلو والانحراف، لقد تساهل هؤلاء العلماء - عند الإصفهاني - وأهملوا هذا الموضوع الهام، ولو أنهم كانوا محققين فعلاً ونقاداً أحاديث لوزنوا الأمور، وعرضوا ما بأيديهم على الكتاب، والعقل، والنقد السندي، ولما اعتمدوا في التوثيق على قول فلان أو فلان^(١).

ومن هذا الإهمال الذي حصل، يرى الإصفهاني أن كتب الشيعة والسنة معاً مملوءة من الأخبار المجهولة^(٢)، حتى جعل كثرة الروايات المتعارضة في وسائل الشيعة، دليلاً على كثرة الوضع فيه^(٣)، وأن مثل أبي هريرة الوضع قد استطاع النفوذ إلى مصادر الحديث، لذا يطالب أهل السنة باتخاذ موقف تجاه أمثاله، كما يطالب الشيعة^(٤).
ولأن الإصفهاني يرى أكثر أخبار الوضع في مجال المستحبات، يرفض بشدة الروايات التي تعطي ثواباً عظيماً على عمل يسير^(٥)، كما يرفض أخبار قاعدة التسامح رفضاً شديداً^(٦)، ويُفرد لهذه القاعدة رسالة خاصة^(٧)، كما يعتبر تفسير الإمام العسكري عليه السلام^(٨) مجموعاً.

الإصفهاني وتجربة الفقه المؤسس على رفض أخبار الآحاد أصولياً

لم يقف الإصفهاني عند حدود النقد النظري لمقولة حجية بعض الظنون بما فيها أخبار الآحاد، بل تمدّها لممارسة فقهية، تمثلت في أبحاث فقهية له، ثم رسالة عملية للتقليد، ولكي نطلّ على مشهد الفقه الشيعي، وسط نظرية بطلان الظن، تجدر الإشارة سريعاً إلى بعض النتائج الفقهية التي خرج بها الموسوي الإصفهاني، لنعرف تأثيرات نظرياته الأصولية في علم الفقه، الذي هو الميدان التطبيقي لمقولات الظن والعلم.

بدايةً، يفاجؤنا الموسوي الإصفهاني في ميدان الفقه بقضايا ثلاث:

الأولى: لا تحصل أهداف الدين، من تهذيب النفس وإصلاح العمل، عبر أتباع

الظن.

- ١- الإصفهاني، فقه استدلالی: ١٦٧ - ١٦٨.
- ٢- المصدر نفسه: ٦٨٥.
- ٣- المصدر نفسه: ٥٨٢.
- ٤- المصدر نفسه: ٤٨٣ - ٥٠٥.
- ٥- المصدر نفسه: ٥٨٠ - ٥٨٢، ٥٨٢ - ٥٨٤.
- ٦- المصدر نفسه: ٥٥٩ - ٦٠٠.
- ٧- الإصفهاني، بيرامون ظن فقيه: ٧٧، ٥٥٨ - ٥٦٠.
- ٨- المصدر نفسه: ٥٦٣ - ٥٦٦؛ وفقه استدلالی: ٥٦٨.

الثانية: إن الرسائل العملية القائمة على أخبار الآحاد والظنون لا تسقط التكاليف.
الثالثة: إن مبدأ رجوع الجاهل إلى العالم، وهو المبدأ الذي يشرعن نظرية التقليد في الفقه الشيعي، مبدأ صحيح، غير أنه يعني رجوع الجاهل إلى العالم رجوعاً يرتفع معه الجهل ويحلّ مكانه العلم^(١).

وهذه المبادئ الثلاثة الناجمة عن رفض الظن وأخبار الآحاد، في غاية الحساسية، إذ يعني المبدأ الأول عدم جدوائية أتباع الظن عملياً، أي لم يعد بالإمكان الحديث عن تطبيق الإسلام بما يحقق العدالة في ظل نظام فقهي مؤسس على الظن، والأخطر من ذلك على التيار السائد هو المبدأ الثاني، إذ يعني أن المرجعيات الدينية الشيعية اليوم، برمتها تقريباً، ليست مرجعيات حقيقية، وأن ما يكتب على الرسالة العملية من «مبرئ للذمة» ليس صحيحاً، أي إنها دعوة لعدم تقليد المرجعيات الدينية القائمة بأخبار الآحاد، أما المبدأ الثالث فيعني إعادة تكوين لمفهوم التقليد، فلم يعد يعني أتباع المرجع صمّاً وعمياناً، بل مساءلته عن دليله لكي يقتنع المكلف به، وليست القضية أنه لو قلد شخصاً لزمه كل ما قاله، حتى لو لم يقتنع به، كما هو الحال السائد اليوم.

يمكنني القول: إن هذه المبادئ الثلاثة من المبادئ الهامة والأساسية في الفقه المؤسس على رفض الظنون وأخبار الآحاد.

وليس هذا هو الأثر الوحيد للفقه الرافض لأخبار الآحاد، بل ثمة نتائج أخرى مثيرة، عرّفها تجربة الموسوي الإصفهاني، كقوله بعدم تجسّس الماء بالملاقاة لعين النجاسة مطلقاً، سواء كان كثيراً أم قليلاً، بل العبارة بتغيير الأوصاف^(٢)، وجواز المسح في الوضوء ولو بماء جديد لا بقايا ماء الوضوء^(٣)، وصحة غسل القدمين في الوضوء قبل مسحهما أو معه أو بعده^(٤)، وأن سنّ اليأس للمرأة في الحيض غير معيّن، بل هو شأن من شؤون الموضوعات التي لا تعني المعصوم^{عليه السلام}، فما دامت المرأة ترى الدم على ما كانت تراه قبل الخمسين كان حيضاً إلى أن يتغير عليها الحال، ولا عبرة بالقرشية أو النبطية أو غيرهما^(٥)، ولا حدّ للنفاس، فما دامت رأت الدم بعد الولادة فهو نفاس، إلى أن تعلم أنه لم يعد نفاساً، ولو بلغ الحال بها خمسين يوماً^(٦)، وأنّ مفطرات الصيام ثلاثة: الجماع

١- الإصفهاني، بيرامون ظن فقيه: كز.

٢- الإصفهاني، فقه استدلالی: ٣١ - ٤٤.

٣- المصدر نفسه: ٥٢ - ٦٩.

٤- المصدر نفسه: ٨٤ - ٨٦.

٥- المصدر نفسه: ١٠٧ - ١١٤.

٦- المصدر نفسه: ١١٥ - ١٢١.

الفصل السادس: مشروع نقد السنة في الوسط الشيعي الحديث ٦١١

ويلحقه الاستمناء، والأكل، والشرب^(١)، ولا مفطرية للبقاء على الجنابة إلى طلوع الفجر^(٢)، ولا للارتماس^(٣)، ولا للاحتقان مطلقاً، فالعبرة بصدق عنوان الأكل والشرب^(٤)، والإنسان كله طاهر حتى الكافر^(٥)، والغيبة والبهتان والهجولاً يجوز حتى على أهل السنة، والكفار^(٦)، والمسكر مطلقاً طاهر^(٧)، ولا يحرم حلق اللحية، بل لا يستحب إبقاؤها^(٨)، والحيوانات حلال مطلقاً بريئة كانت أم بحرية إلا ما نصّ عليه الكتاب الكريم^(٩)، والزوجة ترث مطلقاً منقولاً وغيره^(١٠)، والربا حرام مطلقاً ولا يستثنى الوالد وولده ولا الزوج وزوجته، ولا المسلم والكافر الحربي^(١١)، ولا يقتل المرتد أبداً^(١٢)، وأخبار قتله موضوعة^(١٣)، وقصة معز بن مالك باطلة غير صحيحة^(١٤)، ولا رجم في الإسلام أبداً^(١٥)...

-
- ١- المصدر نفسه: ١٦٠.
 - ٢- المصدر نفسه: ١٢٢ - ١٤٨.
 - ٣- المصدر نفسه: ١٤٨ - ١٥٢.
 - ٤- المصدر نفسه: ١٥٣ - ١٥٦.
 - ٥- المصدر نفسه: ١٧١ - ٢٠١.
 - ٦- المصدر نفسه: ٢٠٢ - ٢٤٢.
 - ٧- المصدر نفسه: ٢٤٣ - ٢٦١.
 - ٨- المصدر نفسه: ٢٦٢ - ٢٦٩.
 - ٩- المصدر نفسه: ٢٧٠ - ٣٠١.
 - ١٠- المصدر نفسه: ٤٢١ - ٤٥١.
 - ١١- المصدر نفسه: ٤٥٢ - ٤٧٠.
 - ١٢- المصدر نفسه: ٦٠٢ - ٦٤٤.
 - ١٣- المصدر نفسه: ٦٠٧.
 - ١٤- المصدر نفسه: ٦٥٣ - ٦٦٥.
 - ١٥- المصدر نفسه: ٦٤٥ - ٦٨٥.